المدرسة الفارسية في دمشق

الدكتورة ليلى الصباغ

عضو مجمع اللغة العربية بدمشق

(القسم الأول)

سُئلت أثناء جولتي الميدانية في دمشق القديمة، لتقصي المعلومات عن هذه المدرسة، ولِمَ البحث في هذه المدرسة دون غيرها من المدارس القديمة السابقة في دمشق، ودمشق كانت تعجّ بالكثير منها؟ فمن المعروف أن عبد القادر النعيمي (٨٤٥– ٩٢٧هـ/١٤٤٢– ١٥٢)[١]، وهو مؤرخ تلك المدارس، قد بيَّن في كتابه«الدارس في تاريخ المدارس» أن دمشق كانت مدينة تعليمية شديدة النشاط في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي وقبله. وتبدَّى هذا في ذلك العدد الكبير من دور التعليم التي كانت منتشرة في أرجائها. فقد تحدث عن

---

(١) من مؤرخي دمشق وعلماء الحديث. مولده ووفاته بدمشق، عاصر دخول العثمانيين بلاد الشام. له عدة مؤلفات، أشهرها الكتاب المذكور آنفًا: «الدارس في تاريخ المدارس». وقد حققه ونشره الأستاذ «جعفر الحسني» في جزأين، بطريق «المجمع العلمي العربي بدمشق» (١٣٦٧– ١٣٧١هـ / ١٩٤٨– ١٩٥٤م).

انظر ترجمته في: نجم الدين الغزي: الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة، ٣ أجزاء، تحقيق: جبرائيل جبور. بيروت ١٩٤٥ – ١٩٥٩ ، ج١/ ٢٥٠.

وفي: ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ٨ أجزاء، القاهرة، ١٣٥٠هـ؛ جـ٨/ ١٥٣ – وفي الزركلي: الأعلام الطبعة الثالثة، ٩ أجزاء وثلاثة ملاحق. بيروت ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩، ج٤/ ١٦٨ – وفي: جعفر الحسني: مقدمة الدارس في تاريخ المدارس، ج١، د هـ.

وجود (٧) سبع من « دور القرآن » [٢] فيها، و (١٦) ست عشرة من « دور الحديث » [٣]، و (٣) ثلاث من الدور المشتركة لتعليم القرآن والحديث[٤]، وأورد أسماء (١٢٩) مئة وتسع وعشرين مدرسة، تدرّس «علوم الدين» وتوابعها، موزعة على المذاهب السُّنِّيَّة الأربعة: الشافعي، والحنفي، والمالكي، والحنبلي[٥]، وأضاف إليها ثلاث مدارس لتعليم «الطب»[٦]، عدا (٢٩) تسعٍ وعشرين من «الخانقاهات»[٧]، و (٢١) وواحد وعشرين من « الرباطات »[٨]، و (٢٦) ست وعشرين من « الزوايا» [٩]، و (٧٩) تسع وسبعين من «التُّرَب»[١٠]،

(٢) ج١/ ٧- ١٨.

(٣) ج١/ ١٩- ١٢٢.

(٤) ج١/ ١٢٣- ١٢٨.

(٥) خصَّ «الشافعية» منها بثلاثٍ وستين مدرسة (ج١/ ١٢٩- ١٧٢) – والحنفية بِثِنْتَيْن وخمسين مدرسة (ج١/ ٤١٣- ٦٥٠)– والمالكية بأربع مدارس (ج٢/٣-٢٨) – والحنبلية بإحدى عشرة مدرسة (ج٢/ ٢٩- ١٢٦).

(٦) ج٢/ ١٢٧ - ١٣٧.

(٧) «الخانقاه»: كلمة فارسية، تعني مؤسسة مخصصة لمتصوفة طريقة ما.
انظر مادة khankah في دائرة المعارف الإسلامية – الطبعة الجديدة بالفرنسية (E.t^2) المجلد ٤،ص١٠٥٧-١٠٥٨. وكان «النعيمي» قد عرّفها التعريف ذاته في كتابه المذكور آنفًا (ج١٩٥/٢) بقوله نقلاً عن «كمال الدين الدميري» بأن «الخانكاه» بالكاف، هي بالعجمية «دار الصوفية»، ولم يتعرض للفرق بينها وبين الزاوية والرباط.

(٨) «الرباط»: منشأة دينية وحربية جهادية في آن واحد، يجتمع فيها المسلمون للجهاد. (انظر: دائرة المعارف الإسلامية المعرّبة، ج ١٠/ ١- ٢٤) وقد أضاف «النعيمي» إلى هذا المعنى قوله: «هو المكان المسبَّل للأفعال الصالحة والعبادة». ودعَّم قوله بأحاديث لرسول الله ﷺ.

(٩) «الزاوية» في الأصل هي «الصومعة»، إلا أنها أصبحت تطلق مع الزمن على المؤسسة التي

و(٢٧٤) مئتين وأربعة وسبعين من المساجد داخل دمشق[١١] و (٣٢٥) ثلاثمئة وخمسة وعشرين في ضواحيها وما حولها[١٢]، و (٣١) واحد وثلاثين جامعًا[١٣]. وإذا كانت تلك المراكز التعليمية لم تعمل كلها في آن واحد، أو وُجِدت متفرقة أثناء العصور المتتالية، فبعضها نشط واشتد عوده، وبعضها الآخر ذبل أمره وتداعى، تبعًا للأحوال الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفكرية التي كانت تمر بها البلاد؛ إلا أنَّه من المؤكد أنه كان في دمشق حركة تعليمية فعالة في أغلب تلك الدور في مطالع القرن التاسع الهجري وما قبله، بدليل ما ورد عن التدريس والمدرسين فيها أثناء تلك المرحلة.

وقد دفعني إلى اختيار هذا الموضوع للبحث أمران متكاملان فيما بينهما، أولهما عام، يخص مدارس دمشق القديمة بمجموعها، وذلك لِتَعَرُّفِ مدى

=

يقيم فيها المتصوفة، شأنها شأن «الخانقاه» و «التكية». وفيها عادة مسجد، ومدرسة لتعليم المريدين، وغرف للطلبة، والمسافرين، والحجاج. انظر: دائرة المعارف الإسلامية المعرَّبة (ج١٠/ ٢٣١- ٢٣٣). وتحدث «النعيمي» عن «الزوايا» في ج٢/ ١٦- ٢٢٢.

(١٠) «التُرَب»: جَمْع تُربة. وتُربة الإنسان أي رمسه أو قبره. ويلاحظ أنه في زمن الأيوبيين في سورية ومصر بوجه خاص أخذت بعض الشخصيات الإسلامية السياسية، أو الثريّة، تقيم مقبرة خاصة وتُعِدُّها لدفنها، ودفن بعض أفراد أسرتها فيها، وتجعل فيها إلى جانبها مسجدًا ، وترتب فيها قراءً لقراءة القرآن الكريم، ومدرسين وفقهاء، وكتبًا لإلقاء الدروس الدينية، وتغدق عليها أوقافًا وفيرة. وبذلك تحولت الترب إلى دور تعليم؛ وقد أفرد النعيمي لهذه الترب صفحات في كتابه، ج٢/ ٢٢٣ - ٣٠٢.

(١١) ج٢/ ٣٠٣- ٣٣٨.

(١٢) ج٢/ ٣٣٩ – ٣٧٠.

(١٣) **الجامع**: هو المسجد الذي تقام فيه عادة صلاة الجمعة، ويضم لهذا الغرض مجموع المسلمين. ولعدد الجوامع، انظر المصدر نفسه ج٢/ ٣٧١ –٤٤٤ .

نشاطها أثناء الحقبة التي تلت تأريخ «النعيمي» لها؛ وثانيهما خاص «بالمدرسة الفارسية» نفسها، إذ عثرتُ ضمن «وثائق المحاكم الشرعية بدمشق» في أواخر القرن الحادي عشر للهجرة/ السابع عشر للميلاد، وفي النصف الأول من القرن الثاني عشر للهجرة / الثامن عشر للميلاد، على عدد من الوثائق التي تلقي بعض الضوء على تلك المدرسة وأوقافها، وطرف من سيرة حياتها المادية والفكرية؛ التي قد تشبه في الواقع سيرة أية مدرسة من تلك المدارس، من ناحية النشأة وتنظيم العمل، والعاملين فيها، والمستفيدين منها علميًا وماديًا، وقضاياها بوجهٍ خاص مع المتولين عليها وأطماعهم بغلَّتِها، وذلك قبل أن يصيبها الزمن بكلكله، وتفقد دمشق المعاصرة الإشعاع الثقافي والفكري — التعليمي، الذي كان من سمات مجموع تلك المدارس، والذي عُرفت به في الأزمنة السابقة. فهي إذًا نموذج شبه كامل وموثق لبنية تلك المدارس، وتطورها مع الزمن.

والدافع إلى الحديث في الأمر الأول، هو أن الباحث يلاحظ عند قراءة ما دوّنه بعض المؤرخين العرب، المهتمين بالنشاط التعليمي— المدرسي، في أواخر القرن التاسع الهجري، والعقود الأولى من القرن العاشر/ الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين، أنهم يؤكدون أن تلك المدارس الدمشقية قد خبا نشاطها ومالت إلى خراب. ونسبوا إلى الدولة المملوكية الجركسية في أواخر عهدها، وإلى الدولة العثمانية التي حلّت محلها في الربع الأول من القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، مسؤوليةَ ذلك الضياع الثقافي والتعليمي، وخسارة تلك المراكز التعليمية أوقافَها، التي كانت تمدها بالحيوية والفعالية. فالمؤرخ أبو البقاء تقي الدين عبد الله ابن محمد البدري المصري، الوفائي[١٤] يقول في كتابه «نزهة الأنام في محاسن

(١٤) مؤرخ كان له باع في الشعر والتاريخ (٨٤٧– ٨٨٧هـ / ١٤٤٣– ١٤٨٣م) له عدد

الشام» ، عند حديثه عن «الصالحية»، وهي من قرى دمشق وضواحيها الهامة آنذاك، مايلي: ومن محاسن الشام «الصالحية»[١٥]، المشحونة بالزوايا والتُرب، والمدارس، حتى إن بها قصبة دون ميل تمشي فيها بين تُرَب ومدارس، ببناء جميل، استولى عليها «المباشرون»[١٦] و«النظّار»[١٧]، وأزالوا منها العَيْن، ولم يبق سوى الآثار. فكم من مدرسة اندرست بعد الصلاة والتراويح، وأمست في ظلمة بعد

=

من المؤلفات وديوان شعر. من كتبه «نزهة الأنام في محاسن الشام»، وقد طبع في القاهرة سنة١٣٤١هـ . ومن مؤلفاته أيضًا: بصرة أولي الأبصار في انقراض القمر بين الليل والنهار».

انظر: محمد أديب تقي الدين الحصني: منتخبات التواريخ لدمشق. ٣ أجزاء في كتاب واحد. بيروت ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩م، ج٢/ ٥٦٠.

(١٥) حي كبير من الأحياء الرئيسة في دمشق الآن. وكان سابقًا قرية تقع شمال دمشق، وفي سفح جبل قاسيون: وقد امتد إليها العمران منذ القرن السادس الهجري/ الثاني عشر للميلاد. وزخرت في العهدين الأيوبي والمملوكي بالمدارس، والمساجد والتُرب، والزوايا. وتابعت نموها العمراني والسكاني خلال المرحلة العثمانية والمرحلة الاستقلالية المعاصرة.

انظر حول تاريخها: ابن طولون: القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، تحقيق: محمد أحمد دهمان – جزءان ١٤٠١ هـ / ١٩٨٠م

(١٦) المباشِر: هو رئيس عمل حكومي، وقد يكون موظفًا مكلفًا بمهمة خاصة، كجباية الضرائب لمصلحة الخزينة. وقد يقصد به الموظف الكبير أو الرئيسي في الدولة.

انظر: غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري: كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك صححه بولس راويس ، باريس ١٨٩٤ م / ٩٦، ١٣١.

Dozy (دوزي): الملحق بالمعاجم العربية:

Supplément aux dictionnaires arabes 2vols - vol I, 89.

(١٧) جَمع ناظر. والمقصود به: ناظر الوقف، أي المفتش عليه، إذ كان على كل وقف مُتَوَلٍّ يقوم بالإشراف عليه، وناظر يفتش على المتولي وعمله.

تلك المصابيح، وهي تقول: أصبحتُ حاصلاً[١٨] بعدما كان إيواني»[١٩] بالقرّاء عامرًا آهلاً؛ وهذه تقول: أصبحت مربطًا للبهائم، بعدما كنت معبدًا للقائم والصائم؛ وهذه تقول: اتخذوني مسكنًا؛ وهذه تقول: جعلوني متبنًا[٢٠]. وهذه تقول: هدّوني وأخذوا سقفي وكشفوني؛ وهذه تقول: أخربوا جداري، وباعوا الباب، وجعلوني مأوى للكلاب؛ والأوقاف تستغيث إلى المولى المغيث فيقال لهم: اسمعوا كلام الرحمن في مُحكم القرآن: ﴿إِنَّ إِلَينا إِيابَهُم ثُمَّ إِنَّ عَلَينا حِسَابَهُم﴾[٢١]. فيا شَوْقاه لحسن «الجركسية»[٢٢]، وحلاوة «الرُّكنية»[٢٣].

(١٨) الحاصل: مخزن للحبوب. دوزي: المجلد الأول /296.

(١٩) إيوان: كلمة فارسية معرّبة. ويعني قاعة الاستقبال عند ملوك الساسانيين. وهي بهو كبير، مربع الشكل جهته الرابعة مفتوحة لا جدار لها. وقد صُحِّفَت الكلمة في مصر والشام إلى «ليوان»، وهي حجرة تُشبه «الإيوان». وكان «الإيوان» عنصرًا معماريًا أساسيًا في بناء المدارس، إذ كان يفتح على الساحة الهوائية وسط المدرسة.

انظر: «كليمان هيوار» huart: «إيوان» في دائرة المعارف الإسلامية المعربة، ج٣/ ٢١٦. و Madrasa: Hillenbrand (k) (architecture) في دائرة المعارف الإسلامية الجديدة (Ei^2)، المجلد الخامس/ ١١٣١– ١١٣٢.

(٢٠) المِتْبن: المكان الذي يوضع فيه «التبن»، كي تتناوله الحيوانات. و «التبن» هو قش القمح.

(٢١) سورة «الغاشية»، رقم (٨٨)، الآيتان (٢٥) و (٢٦).

(٢٢) أو «المدرسة الجهاركسية» بالصالحية. وهي مدرسة مشتركة للمذهبين الحنفي والشافعي.. وقد وقفها «فخر الدين جركسي الصلاحي» المتوفى ٦٠٨هـ/ ١٢١١م، وهو أحد أمراء «الدولة الأيوبية»، في عهد السلطان «العادل» أخي «صلاح الدين». والمدرسة تقع فوق نهر يزيد، وتنسب إليها اليوم المحلة كلها. وقد اندرست المدرسة ولم يبق منها سوى قبتين كبيرتين أعلاهما متهدم، وبعض جدرانهما.

انظر: النعيمي، المصدر نفسه، ج١/ ٤٩٦– ٤٩٨ – وكرد علي (محمد): خطط الشام، ج٦/ ٨٩

(٢٣) هي «المدرسة الركنية البرانية»، وهي بسفح قاسيون، ومنشئها الأمير «ركن الدين

ويالَهَفَاه على «جامع الأفرم»(٢٤) و «الناصرية»(٢٥). تغيرت تلك المعاهد، وغُلِّقت أبواب تلك المساجد والمعابد. ﴿إنَّا للهِ وإنَّا إلَيهِ رَاجِعُون﴾(٢٦)، إن هذا لهو البلاء الجسيم، فلا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم(٢٧).

وتتردد هذه النغمة الحزينة المتشائمة على دور العلم في دمشق، في أقوال

=

منكورس الفلكي».وهو عتيق «فلك الدين» أخي «الملك العادل الأيوبي» لأمه؛ وقد توفي سنة ٦٣١هـ/ ١٢٣٣م. وتقع اليوم في «حي الأكراد». وقد اختلست منها قطعة وجعلت دورًا. ولا يزال في حائطها كتابات كوفية، وكانت للمذهب الحنفي.

النعيمي: المصدر نفسه. ج١/ ٥١٩– ٥٢١ –كرد علي: المصدر نفسه، ج٦/ ٩٠ .

(٢٤) جامع الأَفْرَم: يقع غربي «الصالحية»، وقد أنشأه نائب دمشق المملوكي «جمال الدين آقوش الأشرم الجركسي» من مماليك «الملك المنصور قلاوون». وقد تم بناؤه سنة ٧٠٦هـ/ ١٣٠٦م. ولا يزال الجامع قائمًا إلى اليوم. وقد خرب ماحوله في فتنة «تيمورلنك»، إلا أنه ظل محتفظًا بتخطيطه وأكثر زخارفه الجميلة. وفي ولاية مدحت باشا العثماني في القرن التاسع عشر هُدم مع كثير من الأبنية، إلا أن بعض أهل بخارى جددوه، وتممه السيد «محمود القوتلي».

– النعيمي: المصدر نفسه، ج٢/ ٤٣٥ –الحصني: منتخبات التواريخ لدمشق. ج٣/ ١٠٤٤ – محمد أحمد دهمان: دمشق في عهد المماليك. دمشق ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م؛ / ١٠٤– ١٠٦.

(٢٥) هي «المدرسة الناصرية البرانية». وكانت تقع بمحلة الفواخير من سفح جبل قاسيون. وهي «دار حديث». وقد أنشأها «الملك الناصر صلاح الدين، ابن الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر غازي ابن صلاح الدين الأيوبي»، سنة ٦٥٤هـ/ ١٢٥٤م. وقد بقيت عامرة يقرأ فيها ويُصلَّى إلى سنة ١٣١٠هـ/ ١٨٩٢م. وبعدها دُرست وصارت حديقة.

النعيمي: المصدر نفسه، ج١/ ١١٥– ١٢٢ ، الحصني: المصدر نفسه/ ٩٤١– ٩٤٢ –كرد علي: المصدر نفسه، ج٦/٧٤.

(٢٦) سورة البقرة (٢) – آية (١٥٦).

(٢٧) نزهة الأنام – مصدر سابق / ٣٢٠– ٣٢١.

مؤرخها «محمد بن علي بن أحمد بن طولون» [٢٨]، الذي عاصر هو الآخر سقوط الدولة المملوكية؛ ودخول العثمانيين بلاد الشام سنة ٩٢٣هـ / ١٥١٧م. ففي فقرات متعددة من تاريخه «مُفاكهة الخلاّن في حوادث الزمان» ، يتحدث بطريق مباشر وغير مباشر عن تلاعب «نظار» أوقاف المدارس، وبيعها لمصلحتهم، أو بيع أجزاء منها[٢٩]، أو اقتراضهم على غلتها[٣٠].

ويبدو أن التلاعب بأوقاف المدارس في أواخر العهد المملوكي كان جزءًا من عملية اللعب بمجموع الأوقاف. وكان يشترك في ذلك القابضون على السلطة السياسية أنفسهم في دمشق، أي نواب السلطان، ومن كانت ترسله القاهرة بين آونة وأخرى من «خاصّكيَّة»[٣١]، باسم «الكشف عن الأوقاف»[٣٢]، ويبدو أن

(٢٨) مؤرخ وعالم بالفقه والحديث مولده ووفاته بدمشق (٨٨٠– ٩٥٣هـ/ ١٤٧٥ – ١٥٤٦م). خلّف كثيرًا من المؤلفات، وفي موضوعات متنوعة. أشهر مؤلفاته المحققة: «القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية»، و «مفاكهة الخلان» و «إعلام الورى بمن ولي نائبًا من الأتراك، بدمشق الشام الكبرى» – انظر: الأعلام، ج٧/ ١٨٤– ١٨٥.
ونجم الدين الغزي: الكواكب السائرة، ج٢/ ٢٢– ابن طولون (نفسه): الفلك المشحون في أحوال محمد بن طولون، دمشق، ١٣٤٨هـ/ ١٩٣٠م. وهو ترجمة لنفسه.

(٢٩) يؤكد ابن طولون في أخبار سنة ٩١٦هـ/ ١٥١٠م في كتابه «مفاكهة الخلاَّن»، أن ناظر أوقاف المدرستين الإقباليتين بدمشق باع منها أماكن «فدادين» في السموقة (قرية)، كل فدان بألف درهم لبعض من لا يخاف الله. ج١/ ٣٤٦.

(٣٠) يذكر «ابن طولون» في المصدر نفسه أيضًا، أن «القاضي الشافعي» قد تسلَّف على ما تغلّه «المدرسة الشامية البرانية و الغزالية، والنّاصريتان والتقوية» (ج١/ ٣٣١).

(٣١) الخاصَّكيّة: جمع «خاصَّكي». وهي كلمة فارسية تركية، وكان يوصف بها «أعضاء الخدمة الخاصة» لدى السلاطين، وفي عهد المماليك كانت تطلق على الحرس الخاص بالسلطان. ومعظم الأعضاء كانوا من معتقي السلطان الحاكم (المشتروات). وكان أكثرهم

بيع الأوقاف قد تفشَّى وعمّ، وكان للقضاة يد فيه إذ كانوا يُبيحون هذا الأمر(٣٣). وقد دفعت هذه الظاهرة الخطيرة السلطان إلى إصدار مرسوم سنة ٩١٦هـ/ ١٥١٠م بإبطال بيعها(٣٤)، ولكن دون جدوى. إذ إن اللعب بأوقاف المدارس غدا علنيًّا، حتى إنه ظهر في دمشق من أطلق عليه اسم «دلاّل وقف المدارس» (٣٥).

ولما سقطت الدولة المملوكية سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م، وحلّت محلها «الدولة العثمانية» ببلاد الشام، أرادت أن تحصر الأوقاف فيها عامة، وأوقاف المدارس خاصة، فدعت كل من كان له «مستند» على وقف جامع، أو مدرسة، أو مسجد، أو تربة، أو خانقاه، أن يُحضره بعد أن يقيم الحساب على سنة اثنتين وعشرين وتسعمئة وتاليتها(٣٦).

وَسَعَتْ لدى المؤرخ «عبد القادر النعيمي» الذي كان قد دوّن في مصنفه معظم أوقاف دور العلم المتنوعة، أن يسلّمها ذلك المصنّف، إلا أنه رفض. وطلب إلى المسؤولين أن يكتفوا بقوائم كشف الأوقاف التي حصلوا عليها. وقد قام هؤلاء ومعهم

=

يصل إلى رتبة «أمير». ويرسلون بمهمات خاصة إلى داخل البلاد وخارجها. وكان بعضهم يُعين نوابًا على النيابات الشامية.

D. Ayalon: khassakiyya, Ei^2, /Vol. IV, P.1130- 1131.

(٣٢) يبدو أنه كان يجري نوع من الاتفاق بين «الخاصَّكيَّة» وبين نائب دمشق على رمي مبلغ من المال على تلك الأوقاف يتقاسمانه فيما بينهما. وقد يكون السلطان نفسه شريكًا في ذلك. (مفاكهة الخلان ج١/ ١٧١، ١٧٦، ٢٢٧، ٢٤٨).

(٣٣) مفاكهة الخلان ج١/ ٣٤٦.

(٣٤) المصدر نفسه، ج١/ ٣٤٩.

(٣٥) المصدر نفسه، ج١/ ٣٧٨.

(٣٦) المصدر نفسه، ج٢/ ٦٥.

القاضي الرومي (العثماني) بزيارة الصالحية للكشف عن مدارسها وأوقافها. وقد رافقهم المؤرخ «ابن طولون» نفسه، وكان ينبههم إلى المدارس العامرة وغير العامرة.

ولكن على الرغم من عملية حصر الأوقاف تلك في بدايات العهد العثماني، فإن «اللعب بأوقاف المدارس» لم يتوقف. إذ تابع نائب دمشق العثماني «جانبردي الغزالي»[٣٧] خطة سابقيه، فوضع يده على «المدرسة الشامية البرانية»[٣٨]، وعلى «جامع تنكز»[٣٩]. ومدارس أخرى.

ولا يتعرض «ابن طولون» لسرقة أوقاف المدارس فحسب، وإنما يبين أيضًا توقف نشاط بعض تلك المدارس، بسبب تسليم التعليم فيها، وأوقافها، لعدد من المدرسين الأتراك الجهلاء، الذين لم يكن لهم من همٍّ سوى الاستيلاء على متحصلها، وهذا كان مصير عدد من المدارس التي توقف التدريس فيها. وفي الواقع تابع «نظار

(٣٧) من كبار المماليك. كان نائبًا على حماة، تعاون مع السلطان سليم العثماني عند دخوله إلى سورية ومصر، فعيّنه السلطان سليم واليًا على بلاد الشام. إلا أنه بعد وفاة السلطان سليم، أعلن ثورته على الحكم العثماني واستقلاله ببلاد الشام. وأخمدت الدولة العثمانية ثورته في عهد السلطان «سليمان القانوني»، وانتهى أمره بالقتل سنة ٩٢٧هـ/ ١٥٢١م.
انظر: ترجمته في ابن طولون: إعلام الورى بمن ولي نائبًا من الأتراك بدمشق الكبرى. تحقيق محمد أحمد دهمان، دمشق، ١٤٠١هـ/ ١٩٨٤م/ ١٩٢– ٢٢٩.

(٣٨) تقع في منطقة العقيبة بمحلة العونية في دمشق — وهي اليوم في سوق صاروجة وهي عامرة وتعرف أيضًا بالحسامية. أنشأتها ست الشام ودفنت فيها، وقد رممتها مديرية الأوقاف السورية في الأربعينيات من القرن الماضي بإشراف مديرية الآثار.
– النعيمي: المصدر نفسه، ج١/ ٢٧٧– ٣٠٠ — الحصني: المصدر نفسه، / ٩٤٦.

(٣٩) يقع ظاهر باب النصر تجاه حكر السمّاق على نهر بانياس في دمشق. وقد بناه نائب دمشق المملوكي المتوفى سنة ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م. وقد أحضرت جثة «تنكز» مصبَّرة من الإسكندرية بعد قتل السلطان له ليوارى في تربته إلى جانب الجامع.
– النعيمي: المصدر نفسه/ ج٢/ ٤٢٥– ٤٢٦ — العلموي: المصدر نفسه/ ١٠٢.

الأوقاف» الأتراك كأمثالهم النظار السابقين، عمليةَ التخريب للأوقاف والاستيلاء عليها. ومع أن الدولة العثمانية سعت لاتخاذ إجراءات عقابية صارمة تجاه من يثبت عليه ذلك، فإنَّ «سنان القرماني» [٤٠] ناظر البيمارستان النوري[٤١]، و«الجامع الأموي»، باع بُسُط الجامع وحصره حتى قال «محمد أبو الفتح المالكي»[٤٢]، العالم والشاعر في أوقاف الجامع الأموي، حاكيًا لسان حال الجامع مايلي:

يقولُ على ما قيلَ جامِعُ حِلِّقٍ أَمُ لم يَكُ قاضي الشام عنّي مسؤولا[٤٣]

يُسَلَّمُ للأعاجمِ وقفي لأُكلِه ويَروي لهم عني كِتاب ابن ماكولا[٤٤]

(٤٠) من الأتراك العثمانيين: وهو والد «أحمد جلبي القرماني» ناظر أوقاف الحرمين الشريفين بدمشق. وقد شنق سنة ٩٦٦هـ / ١٥٥٩م، لما فعله في الجامع وفي «المدرسة الصمصامية».– نجم الدين الغزي: الكواكب السائرة، ج٢/ ١٤٩.

(٤١) هو «المشفى النوري». ويقع في زقاق البيمارستان داخل دمشق بناه «نور الدين الزنكي» سنة ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م. وقد حُوِّل في يومنا هذا إلى متحف. وقد ظل عامرًا حتى سنة ١٣١٧هـ/ ١٨٩٩ – ١٩٠٠م .

انظر: أحمد عيسى بك: تاريخ البيمارستانات في الإسلام ، دمشق ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٩م/ ٢٠٦، و شوكت الشطي، موجز تاريخ الطب، دمشق ١٩٥٩/ ٢٢– ٢٣.

(٤٢) هو محمد بن عبد السلام بن أحمد التونسي الأصل، المالكي المذهب، نزيل دمشق، (٩٠١– ٩٧٥هـ/ ١٤٩٦– ١٥٦٧م). فقيه، وعلامة في النحو والصرف والمعاني والبديع والعروض والمنطق. وهو أديب وشاعر، ولي نيابة القضاء زمنًا طويلاً .

– انظر – الكواكب السائرة ج٣/ ٢١– ٢٦ والحنبلي: در الحبب ج٢/ ١٤٣.

(٤٣) حِلِّق: اسم لموقع قرب دمشق اتخذه غساسنة الشام أحد مقار إقامتهم. ويبدو أنه كان جنوبي دمشق. ولم يلبث هذا الاسم أن أطلق على دمشق وغوطتها.

– دائرة المعارف الإسلامية الجديدة بالفرنسية: N. Elisseeff, Djillik, E.i2. Vol. II, 554.

(٤٤) ابن ماكولا: هو علي بن هبة الله (٤٢١– ٤٨٦هـ/ ١٠٣٠– ١٠٩٣م). أمير ومؤرخ، وشاعر، أصله من نواحي أصبهان في فارس. ولد قرب بغداد وتنقل بين مصر والشام وما وراء

أبَعْد فتى **السِّبْكي** أُعْطى لسَيْبَكٍ وبَعْد الإمامِ **الزَنكَلوني لِزَنكولا**[٤٥]

=

النهر وخراسان. وهو من العلماء الحفَّاظ. قتله غلمان له من الترك، طمعًا بماله. من كتبه المشهورة: «الإكمال في المؤتلف والمختلف من الأسماء والكنى والأنساب» – ابن خلّكان: وفيات الأعيان، ج١/ ٣٣٣ – الزركلي، الأعلام، ج٥/ ١٨٣.

(٤٥) يضم هذا الهامش شروح ما أتى في مجموع بيت الشعر من مفردات:

– **السِبْكي**: لا يعرف بالضبط، من المقصود بـ «السُبْكي» هنا: فهناك عدد من أفراد هذه الأسرة اشتهر بالعلم، وتسنَّم منصب قاضي قضاة الشافعية في مصر والشام. فهناك «بهاء الدين السبكي» (٧٠٧– ٧٧٧هـ/ ١٣٠٧– ١٣٧٥) [انظر: ترجمته في النعيمي، المصدر نفسه، ج١/ ٣٨– ٣٩). و «تاج الدين السبكي» (٧٢٧– ٧٧١هـ/ ١٣٢٦ – ١٣٦٩م) [النعيمي: المصدر نفسه، ج١/ ٣٧– ٣٨] و ولي الدين السبكي (٧٣٥ – ٧٨٥هـ/ ١٣٣٤ – ١٣٨٣م) [المصدر نفسه، ج١/ ٣٩– ٤٠]. وقبلهم «تقي الدين السبكي» (٦٨٣– ٧٥٦هـ/ ١٢٨٤ – ١٣٥٥م) [المصدر نفسه، ج١/ ٣٥– ٣٦]. ولعلّه يقصد بـ «الفتى السبكي» أصغر آل السبكي سنًا، وهو «ولي الدين» المذكور آنفًا، وقد أفتى ودرّس في دمشق وناب في القضاء، وولي الخطابة. أو «جمال الدين السبكي» وقد توفي شابًا (٧٢٢– ٧٥٥هـ/ ١٣٢٢– ١٣٥٤م)، وقد عرف بعلمه وقضائه العادل [النعيمي، ج١/ ٢٣٩– ٢٤٠].

– **السَيْبَك**: أنبوب يوضع بين فخذي الطفل في المهد ليبول فيه. والكلمة عامية على ما يبدو، والشاعر يشبه هنا من وُكِلَ إليه أمر الجامع الأموي، ذلك التشبيه المقذع ليدل على انحطاط مستوى النظارة به. مع استخدامه أحرف كلمة «السبكي» محرفة عن مواقعها.

– انظر دوزي باللغة الفرنسية الملحق بالمعاجم العربية ج١/٦٢٨– ٦٢٩.

– **الزَنْكَلُوني**: هو أبو بكر بن إسماعيل مجد الدين (٦٧٩– ٧٤٠هـ / ١٢٨٠– ١٣٣٩ م). نسبته إلى قرية «زَنكَلون» من قرى شرقية مصر. عاش وتوفي في مصر، ورحل إلى دمشق. له تصانيف في فقه الشافعية. ولكن لم يُعرف أنه درّس في الجامع الأموي، أو كان ناظرًا لوقفه إلا أن «بهاء الدين السبكي» المشار إليه في الحاشية السابقة تلمذ له.

– انظر النعيمي: المصدر نفسه ج١/ ٣٨ – ابن حجر العسقلاني. الدرر الكامنة

أقاموا لي قِردًا بشباك مَشْهَدٍ وَضمُّوا له قِرْدًا على الرَفضِ مَجْبولا[٤٦]
يؤمِّل كلٌ أكْلَ مَالي بأثْرِه فلابَلّغَ اللهَ الأعاجمَ مأمولا

بل إن ((ستان القرماني)) ذاك، خرّب أيضًا ((المدرسة المالكية)) ، قرب ((البيمارستان النوري)) المعروفة بـ ((الصمصامية)) [٤٧]، فشُنق بسبب أفعاله تلك،

=

ج١/٤٤١ – الأعلام ج٢/ ٣٦ .

- **زِنْكولا**: لا تبدو المفردة كلمة أو اسمًا معروفًا، إلا إذا كانت قد نحتت من كلمة زانكي، وتعني بالعامية ((لص)). – دوزي، المصدر السابق بالفرنسية، ج١/٦٠٧.

وهناك أيضًا كلمة ((زُنكلَة)). وتعني طعامًا يصنع من العجين والسكر ولكنها لاتؤدي المعنى المقصود. دوزي ، المصدر نفسه، ج١/٦٠٧ – ٦٠٨.

(٤٦) هذه الحاشية تشرح مفردات البيت:

- **مَشْهَد**: مبنى إسلامي يضم عادة قبر وليّ، أو يُخَصَّص لأحد الصالحين دون أن يكون مدفونًا فيه؛ وكان في الجامع الأموي عدة مشاهد، منها مشهد ((أبي بكر الصديق))، ومشهد ((علي زين العابدين))، ومشهد ((عروة)) وغيره.

- انظر: صلاح الدين المنجد، مسجد دمشق، دمشق ١٩٤٨/ ٢٠- ٣٣.

- **الرفض**: يقصد بهذا التعبير عادة في عرف ذلك العصر، ((التشيع لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ولآله)).

(٤٧) تقع المدرسة في محلة ((حجر الذهب)) شرقي دار القرآن الوجيهية. ويبدو أنها جددت للمالكية سنة ٧١٧هـ/١٣١٧م، ووقف عليها شمس الدين غبريال المتوفى ٧٣٤هـ/ ١٣٣٣م. ويظهر أنها دُرست بعد أن خربها ناظرها سنان القرماني نحو ٩٦٦هـ/ ١٥٥٨م – ١٥٥٩م. إذ إن المؤرخ ((العَلْموي)) يشير إلى أنه لا يعرف مكانها. ويضيف ((الحصني)) أنها دخلت في طريق السوق الحميدية.

انظر: النعيمي: المصدر نفسه، ج٢/ ٨-١٠ – العلموي: المصدر نفسه/ ١١٨- ١١٩. –كرد علي: خطط الشام، ج٦/ ٩٦ – الحصني، المصدر نفسه/ ٩٥٩.

هو ومتولي «السليمية» [٤٨] «حسين الجلبي» [٤٩].

ويُعقّب المؤرخ «نجم الدين الغزي» [٥٠] القريب من تلك الحقبة، على ما قام به الناظران بقوله: «وأما الآن — أي في القرن الحادي عشر / السابع عشر للميلاد– فقد تجاوز أهل الفساد إلى أمور فوق هذه الأمور، بحيث هذه الأمور التي انعقدت على «سنان» لا تعدّ لها شيئًا؛ ثم إن حصل عليهم إنكار، دفعت

(٤٨) هي جامع السلطان «سليم العثماني» الذي بناه على ضريح الشيخ «محيي الدين بن عربي»، في الصالحية، وكان ذلك سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م. وقد وقف عليه أوقافًا كثيرة دارّة. وأتبع له تكيّةً يطبخ فيها. وكان الناظر المشار إليه متوليًا على التكية لا على الجامع المدرسة.
– العلموي: المصدر نفسه، ٢٤٠– ٢٤١.
وهناك تكية أخرى باسم «السليمية» في المرج الأخضر في التكية السليمانية. وقد بناها السلطان سليم أيضًا، وظلت ناشطة حتى القرن الثالث عشر الهجري.
انظر: كرد علي، المصدر نفسه، ج٦/ ١٣٨.

(٤٩) شنق مع «سنان القرماني»، وصلبا بدار السعادة وشاشاهما وعِمامتاهما على رؤوسهما. وهما ذوا شيبتين نيّرتين. الغزي، الكواكب السائرة، ج٢/ ١٣٩.

(٥٠) هو محمد بن محمد بدر الدين الغزي الملقب بـ «نجم الدين». ولد بدمشق وتوفي فيها (٩٧٧– ١٠٦١هـ/ ١٥٧٠ — ١٦٥١م) مؤرخ، وأديب، وفقيه. له مؤلفات متعددة في موضوعات متنوعة ومنها في التاريخ: «الكواكب السائرة في مناقب أعيان المئة العاشرة»، وذيله «لطف السمر وقطف الثمر من تراجم أعيان الطبقة الأولى من القرن الحادي عشر». وقد نشر الأول في ثلاثة أجزاء، وحققه الأستاذ «جبرائيل جبور» (لبنان ١٩٤٥ ١٩٥٩)، ونشر الثاني في سفرين، وقد حققه الأستاذ «محمود الشيخ» ونشرته وزارة الثقافة في سورية، سنة ١٩٨٠– ١٩٨١م.
انظر: حول «الغزي» المؤرخ، الدراسة التفصيلية في مقدمة كتاب «لطف السمر»، وفي السِفْر الأول، ص: 1 - 151 — والمحبي: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، ج٤/ ١٨٩– ٢٠٠.

الرشوة عنهم وباله، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم»[٥١].

وفي الحقيقة، مع ما قد يتبين من موقف الدولة العثمانية الشديد نسبيًا من «سارقي الأوقاف، فإن الاعتداء عليها بوسيلة أو بأخرى بقي قائمًا، حتى افتقدت دور العلم والدين أوقافها مع الزمن، وضاعت معالم أكثرها. ويظهر هذا واضحًا في كتابات المؤرخين المعاصرين لنا، من أمثال: «محمد أديب تقي الدين الحصني»[٥٢] و «محمد كرد علي»[٥٣]، اللذين أفردا دراسات خاصة للأوقاف وضياعها، وأسباب ذلك الضياع، وأظهرا أساهما على تلك المدارس ونشاطاتها السابقة، وما قدمته من خدمات علمية وتثقيفية وفكرية لأجيال العصور السالفة[٥٤].

وفي الحقيقة، إذا أمعن في النظر في عوامل ضعف نشاط تلك المدارس في دمشق، فإنه يلاحظ أن ضياع تلك المدارس لبعض أوقافها، مع أهميته الكبيرة

---

(٥١) جاء قول «الغزي» في الكواكب السائرة، ج٢/ ١٤٩ – ترجمة «سنان القرماني».

(٥٢) أديب ومؤرخ من أهل دمشق (١٢٩٢- ١٣٥٨هـ/ ١٨٧٤- ١٩٤٠م). ولي نقابة أشراف مدينة دمشق مدة، وكتب تاريخها في مؤلَّف عنوانه: «منتخبات لتواريخ دمشق» في ثلاثة أجزاء، ضُمت في مجلد واحد. دمشق ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.

(٥٣) هو محمد بن عبد الرزاق كرد علي (١٢٩٣- ١٣٧٢هـ/ ١٨٧٦- ١٩٥٣م) . أديب ومؤرخ وصحفي، من أهل دمشق، كان رئيس «المجمع العلمي العربي بدمشق» ومؤسسه، وصاحب «مجلة المقتبس»- ولي وزارة المعارف مرتين أثناء الانتداب الفرنسي. ووقف في وجه القوى العثمانية الساعية للتتريك. له مؤلفات كثيرة. وكان يحسن التركية والفرنسية إلى جانب العربية، من مؤلفاته الهامة «خطط الشام» بستة أجزاء، و «المذكرات».

- الزركلي: الأعلام، ج٧/ ٧٣- ٧٥.
- كرد علي: خطط الشام، ج٦/ ٣٣٣- ٣٤٧، حيث ترجم «محمد كرد علي» نفسه.

(٥٤) انظر: خطط الشام، ج٦/ ١٦٣- ١٦٧ – والحصني/ ٩٦٨- ٩٧٢.

لحياة تلك المدارس، ووصول الأروام الجهلاء إلى التعليم في بعضها، لم يكونا في الواقع وحدهما السبب وراء التضاؤل التدريجي للفعاليات التعليمية لتلك المدارس، ثم تلاشيها تقريبًا في أواخر القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي. إذ لابدَّ ألاّ يغيب عن ذهن الباحث، الضعف السياسي، والاقتصادي، والاجتماعي الذي تردت فيه الدولة العثمانية وإمبراطوريتها في تلك المرحلة من تاريخها، وأثر ذلك على الحياتين الفكرية والتعليمية. هذا في الوقت الذي أخذت فيه هذه الدولة تقوم بحركة إصلاح واسعة لمختلف شؤونها، مقتبسة من الحضارة الأوربية. ففي القرن الثالث عشر أجرت تغييرات جذرية في البنية التعليمية في إمبراطوريتها. وقد مهّد حكم مصر لبلاد الشام زمن «إبراهيم باشا»[٥٥] (١٨٣٢– ١٨٤٠م) لتلك الإصلاحات التعليمية، التي كانت «مصر» قد سبقت الدولة العثمانية في مضمارها. فمن المعروف أن ذلك الحكم أنشأ في سورية «برنامجًا للتعليم الابتدائي» على نمط ذاك الذي جرى تطبيقه في مصر[٥٦]. ولم تلبث «الدولة

(٥٥) هو ابن «محمد علي باشا» والي مصر. عاش خلال المرحلة (١٢٠٤– ١٢٦٤هـ/ ١٧٩٠– ١٨٤٨م). أرسله والده بحملة إلى الحجاز لإخضاع الوهابيين الثائرين، وكان قائدًا أيضًا لحملته في حرب «المورة» سنة ١٢٣٩هـ/ ١٨٢٣م؛ كما كان على رأس الحملة التي أرسلها إلى بلاد الشام وانتهت بضمِّها إلى مصر. وكان على رأس حكم بلاد الشام ثماني سنوات (١٨٣٢– ١٨٤٠م)، حيث عملت «الدولة العثمانية» والدول الأوربية على إخراجه منها. ونزل له أبوه عن إمارة الديار المصرية سنة ١٨٤٨م، إلا أنه توفي بعد سبعة أشهر.

انظر: دائرة المعارف الإسلامية الجديدة بالفرنسية ($E1^2$) المجلد (٣) ١٠٢٤– ١٠٢٥، IBRAHIM PASHA، – كرد علي، خطط الشام، ج٤/ ٤٥– ٧٢ – الزركلي، الأعلام، ج١، ٦٦– دائرة المعارف الإسلامية المعرّبة، ج١/ ٤١– ٤٢.

(٥٦) انظر: جورج أنطونيوس: يقظة العرب تعريب علي حيدر الركابي، دمشق، ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦، ص٣١– ٣٢.

العثمانية» أن أوجدت هي الأخرى «تنظيمًا جديدًا للتعليم» بموجب «نظام المعارف» الصادر في ٢٤ جُمادى الأولى ١٢٨٩هـ / الفاتح من إيلول ١٨٦٩م(٥٧). وفيه نظمت «الدراسة» في خمس مراحل:

«المرحلة الابتدائية» ومدتها أربع سنوات وهي إلزامية؛ و «المرحلة الرشدية» ومدتها أربع سنوات أيضًا، و «المرحلة الإعدادية» ومدتها ثلاث سنوات، ومرحلة «المدارس السلطانية»، وهذه لا توجد إلا في مراكز الولايات. وهي قسمان: قسم عالٍ، والدراسة فيه ست سنوات، وقسم عادي، ومدة الدراسة فيه ثلاث سنوات؛ وأخيرًا «المرحلة الخامسة» وتشمل «دار المعلمين ودار المعلمات، ودار الفنون، ومكاتب الفنون، والصنائع المختلفة، وتمتد الدراسة فيها بحسب شعب الدراسة وتفرعاتها ثلاث سنوات أو أربع. وكان هناك أيضًا، ماسمي بـ «المدارس الرشدية العسكرية» ويلتحق بها الطلاب بعد إتمام دراستهم الابتدائية.

---

(٥٧) انظر حول «التعليم العصري في الدولة العثمانية» مادة «معارف Ma`arif». في دائرة المعارف الإسلامية الجديدة بالفرنسية $E1^2$، المجلد (٥)، ص(٩٠٨– ٩٢٠) والبحث للباحث وِنْتَر M. Winter.

وانظر أيضًا (الباب الرابع) من كتاب «الدولة العثمانية، تاريخ وحضارة». جزءان تأليف مجموعة من الباحثين، بإشراف الأستاذ الدكتور «أكمل الدين إحسان أوغلي». والجزء الأول من تعريب الأستاذ «صالح السعداوي» اصطنبول ١٩٩٩. وانظر بوجهٍ خاص الصفحات (٤٩٥– ٥٥٦).

وانظر أيضًا: عبد الجبار الحاج عثمان: «التعليم الرسمي والتقليدي والأهلي عند المسلمين في بلاد الشام، مابين ١٨٧٨ و ١٩٢٠. رسالة ماجستير في قسم التاريخ بجامعة دمشق سنة ١٩٨٠، بإشراف الأستاذ الدكتور «أحمد طربين» وهي مرقونة على الآلة الكاتبة.

وانظر كذلك، عبد العزيز محمد عوض: «الإدارة العثمانية في ولاية سورية» (١٨٦٤ ١٩١٤)، مصر، دار المعارف. د.ت/ ٢٥٤– ٢٥٧، و ٢٦٠– ٢٦٤.

وبذلك بدأت أنواع تلك المدارس تنتشر في بلاد الشام، وتنافس «المدارس التقليدية» المشار إليها آنفًا، بل إن بعض تلك المدارس القديمة غدت مقرًا لبعض المدارس الجديدة. ومَثَلٌ على ذلك «المدرسة الجقمقية» التي أطلق عليها في القرن الثالث عشر الهجري «المدرسة الجقمقية الرشدية» (٥٨)، وكانت مكتبًا (أي مدرسة) مقدمًا على سائر المكاتب.

ويجب ألا يُنسى في هذا المجال التعليمي الجديد «المدارس التبشيرية» التي نما نشاطها أثناء الحكم المصري في بلاد الشام وبعده، لتشجيع هذا الحكم لها، وإن كان نصيب ولاية سورية، ودمشق بالذات أقل من نصيب «ولاية بيروت»، و «متصرفية لبنان».

ومهما تكن العوامل التي أضعفت من نشاط المدارس الدمشقية القديمة التي تحدث عنها «النعيمي»، فإنه يمكن تثبيت الحقيقة التالية: بأن تلك المدارس قد تضاءلت فعالياتها التعليمية في القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي، ولم يبق منها سوى شعاع من نور هنا وهناك. ومن هذه المدارس التي أصابها ماأصاب غيرها من دور التعليم، «**المدرسة الفارسية**» التي نحن بصدد الحديث عنها.

---

(٥٨) وتقع شمال الجامع الأموي، وكان قد أسسها «سنجر الهلالي» وولده «شمس الدين»، ثم انتزعها «الملك الناصر حسن». واحترقت في فتنة «تيمورلنك»، فجددها «سيف الدين جَقْمَق» وأضاف إليها مدرسة للأيتام وتربة وجعلت في القرن الثالث عشر الهجري، مدرسة للذكور، وتميزت عن غيرها.

انظر: – خطط الشام، ٦/ ٨٩ — وعبد الرزاق البيطار: حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، ج٢/ ٨٢٨– ٨٢٩. وانظر: – محمد جميل الشطي: أعيان دمشق في القرن الثالث عشر ونصف الرابع عشر (١٢٠١ –١٣٥٠هـ) دمشق، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤، ص١٦٩.

وفي الواقع يطالعنا مؤرخونا المعاصرون الذين تتبعوا أخبار تلك المدارس أو بعضها، بإثبات تلك الحقيقة عن تلك المدرسة. «فعبد القادر بدران» [٥٩] المتوفى ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٧م، الذي كان من أوائل الباحثين السوريين المعاصرين في الآثار الإسلامية بدمشق، ذكر في كتابه «منادمة الأطلال ومسامرة الخيال» عن هذه المدرسة مايلي: «وقفتُ على آثارها، فلم أر شيئًا من المدرسة، وهناك جامع صغير مقابل نهاية «سوق السلاح»[٦٠]، وبه قبران، وأظنه هو التربة المذكورة؛ وبجانبه من الغرب زقاق له باب قديم، والله أعلم أن المدرسة كانت هناك ثم تناولتها أيدي المختلسين فجعلتها دورًا، وأعانت الدهر على محو آثارها» [٦١]. ويبدو أن «بدران» قد انطلق في تحديد ذلك الموقع للمدرسة مبدئيًا مما ذكره

(٥٩) هو «عبد القادر بدران بن أحمد بن مصطفى»، فقيه حنبلي، عارف بالأدب والتاريخ وشاعر. ولد في «دوما» وهي قرية قرب دمشق، وعاش في دمشق وتوفي فيها، ولي إفتاء الحنابلة، وبحث في الباقي من آثار دمشق. له عدة تصانيف منها: «الآثار الدمشقية والمعاهد العلمية»، و «منادمة الأطلال». وقد طبع هذا الأخير بنفقة حاكم قطر «الشيخ علي بن عبد الله ثاني». وهو من منشورات المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، دمشق ١٣٧٩هـ. ومن أعماله أيضًا: اختصار «تاريخ دمشق» لابن عساكر في بضع مجلدات.

انظر: زكي محمد مجاهد: الأعلام الشرقية في المئة الرابعة عشرة للهجرة، ٣ أجزاء، مصر ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٨م، ج٢/ ١٢٨ – الزركلي: الأعلام، الطبعة الثالثة، ج٤/ ١٩٢- ١٩٣.

(٦٠) من أسواق دمشق القديمة، يقع جنوب جامع دمشق، مقابل باب الزيادة، وكانت تباع فيه مختلِف الأسلحة.

انظر: - ابن عبد الهادي: نزهة الآفاق في شرح حالة الأسواق. نشر حبيب الزيات في الخزانة الشرقية، مجلة المشرق – بيروت – السنة السابعة والثلاثون ١٩٣٩ – العدد الأول (١٨- ٢٨).

(٦١) منادمة الأطلال ومسامرة الخيال/ ١٣٥.

«النعيمي» عن موقعها القديم، وهو غرب «المدرسة الجوزية الحنبلية»[٦٢] مقابل الخارج من «باب الزيادة» [٦٣] بالجامع الأموي.

أما «الحصني» فقد ذكر «أن «المدرسة الفارسية» هي «جامع بين البحرتين» وهي باقية إلى اليوم مسجدًا أو مُصلّى، ومِنْ نَظْم بانيها:

هذه دارُنا التي نحنُ فيها دار حقٍ وما سواها يزولُ
فاعتمرْ للمَماتِ دارًا إليها عَنْ قريب يفضي بك التحويلُ[٦٤]»

ويبدو أنه قد نقل الشعر مما أورده العلاّمة «محمد كرد علي» في كتابه «خطط الشام» عند حديثه عن «المدرسة الفارسية»، إذ قال: «في المدرسة الفارسية الآن قبران، وهاكَ أبياتًا من نظم بانيها، أمر أن تكتب على تُرْبته بعد وفاته. وأظنها لغيره من المتقدمين، وقد رأيتها مكتوبة على مدفن «بني

(٦٢) تقع «المدرسة الجوزية» في أول سوق القمح بدمشق (البزورية) أنشأها سنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م ابن جمال الدين الجوزي البكري. وكانت مقرًا للمحكمة الشرعية. ثم غدت مدرسة لجمعية الإسعاف الخيري لتعليم اليتامى والأولاد الفقراء؛ وقد احترقت أثناء الثورة السورية، ودُرست، وجدد مكانها مخازن ومصلى بسيط.

- النعيمي: ج٢، ٣٩- ٦٣ – العلموي: المصدر نفسه/ ١٢٢- ١٢٣.
- الحصني/ ٩٥٩ –كرد علي: خطط الشام، ج٦/ ٩٦.

(٦٣) أحد أبواب الجامع الأموي السبعة. ويقع جنوبي الجامع، ويُعرف أيضًا «باب العنبرانين». و «باب الساعات»، لأنه كان عنده ساعة عجيبة يعلم بها كل ساعة من النهار.

– الحصني /١٠٩ — انظر حول الساعة: رضوان محمد الساعاتي (المتوفى ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م) في مؤلَّف: علمَ الساعات والعمل بها. تقديم وتحقيق وتعليق محمد أحمد دهمان، دمشق، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م/ ٢٨- ٣٢.

(٦٤) منتخبات التواريخ لدمشق، ج٣/ ٩٤٩.

الشُحنة»[٦٥] مؤرخي حلب، في «باب المقام[٦٦] بحلب» وأعاد البيتين المشار إليهما آنفًا، وأضاف إليهما ثالثًا هو:

فاعتملْ صالحًا يؤانِسكَ فيها مثلما يؤنْسُ الخليلَ الخليلُ

وعلَّق على أبيات الشعر قائلاً: «إن هذه الأبيات قد أمر الأمير المجاهد المرابط «سيف الدين علي بن قليج» رحمه الله، أن تكتب على قبره، وذلك في حجر خاص في «المدرسة القليجية» [٦٧]. و «سيف الدين» هذا من أمراء «نور الدين الزنكي»، وبذلك رأينا أن هذه الأبيات قد ادعاها كثيرون، وأحبها غير واحد من العظماء[٦٨]».

(٦٥) ظهر عدد من المؤرخين والعلماء من هذه الأسرة بحلب أثناء القرنين الثامن والتاسع للهجرة، ومنهم «محمد بن محمد أبو الفضل»، وكان يلقب بـ «ابن الشحنة الصغير» (٨٠٤- ٨٩٠هـ/ ١٤٠٢- ١٤٨٥م)، وكان فقيهًا ومؤرخًا له عدة تصانيف؛ وينسب إليه «الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب».
انظر: الزركلي، الأعلام، ج٧/ ٢٧٩- ٢٨٠.

(٦٦) هو باب «المقام الإبراهيمي» في حلب، حيث يقع مشهد إبراهيم الخليل عليه السلام، أي هو الباب الذي يؤدي إلى ذلك المقام حيث تقع أشرف مقابر حلب، التي يدفن فيها عادة الصلحاء والزهاد. – الغزي (كامل): نهر الذهب في تاريخ حلب، ٣ أجزاء، حلب (١٣٤١- ١٣٤٥هـ/ ١٩٢٢- ١٩٢٦م). ج٢/ ٢٦٨.

(٦٧) «المدرسة القليجية الشافعية»: وتقع داخل الباب الشرقي وباب توما، انظرها في النعيمي، ج١/٤٣٤، وقد دُرست وضاعت معالمها. – أما «القليجية الحنفية» فكانت في سوق التبن واتخذت بيتًا ملاصقًا لدار بني العظم. ولعلها هي التي كانت مجمع الفضلاء للاستشارة إذا دهم أهل دمشق أمر مهم. خطط الشام، ج٦/٩٤.

(٦٨) جاءَ تعليق «كرد علي» على أبيات الشعر، عند حديثه عن «القليجية» الشافعية، خطط الشام، ج٦/٨٥- ٨٦.

ويذكر الباحث «جعفر الحسني» [٦٩] محقِّق كتاب «النعيمي»، «الدارس في تاريخ المدارس» في حاشيته التي يعلِّق فيها على «المدرسة الفارسية» بأنه «بُني مكانها مصلًّى حديث العهد» [٧٠].

أما الباحث «محمد أسعد طلس» [٧١] الذي قام بنشر كتاب «ثمار المقاصد في ذكر المساجد» لمؤرخه «يوسف عبد الهادي» [٧٢]، وذيَّله بالمساجد القائمة في المرحلة المعاصرة بدمشق، فقد وصف ذلك المسجد الذي حلَّ محلّ «المدرسة الفارسية»، وصفًا أكثر تفصيلاً، فقال عنه: «مسجد شتوي فقط، له جبهة حجرية حديثة، وإلى جانبه شباكان وبحرتان صغيرتان سمي المسجد بهما (أي سمي مسجد مابين البحرتين)؛ وإلى يسار الداخل إلى المسجد قبران قديمان(؟)

(٦٩) هو الأمير «جعفر الحسني بن أحمد بن الأمير عبد القادر الجزائري» (١٣١٢– ١٣٩٠هـ/ ١٨٩٥– ١٩٧٢م). من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق، وعالم بالآثار؛ من أهل دمشق مولدًا ووفاة. وقد عين مديرًا للآثار في سورية (١٩٤٧– ١٩٥٠م)، واختير أمينًا عامًا للمجمع العلمي العربي سنة ١٩٥٦.
انظر: مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق. المجلد ٤٥/ ٨٨٧ — وأحمد قدامة: معالم وأعلام في بلاد العرب، دمشق ١٩٦٥ (القطر العربي السوري ج١/٣٨٨).

(٧٠) النعيمي، المصدر نفسه، ج١/٤٢٦، الحاشية (٢).

(٧١) من أهل حلب مولدًا ووفاة (١٣٢٤– ١٣٧٩هـ/ ١٩٠٦– ١٩٥٩م). دَرَس في حلب وفي القاهرة، وتابع دراسته في جامعة بوردو في فرنسة، ونال منها شهادة الدكتوراه في الآداب. وعمل في بغداد حيث فهرس خزانة الأوقاف فيها، وعين في سورية مديرًا لمؤسسة اللاجئين. له عدة مؤلفات في التاريخ والآثار. انظر: الزركلي، الأعلام — الطبعة السادسة، ١٩٤٨، ج٦/٣٣.

(٧٢) هو يوسف بن حسن بن أحمد جمال الدين (ابن المِبْرَد)، من فقهاء الحنابلة في دمشق (٨٤٠ – ٩٠٩هـ/ ١٤٣٦– ١٥٠٣م). له عدة تصانيف. انظر: الزركلي، الأعلام الطبعة الثالثة، ج٩/٢٩٩، ونجم الدين الغزي: الكواكب السائرة في أعيان المئة العاشرة، ج١/٣١٦.

قد أعيد بناؤهما مجددًا. وليس في المسجد سوى عمودي المحراب الصليبيين الرخامين»[٧٣].

ويشير «كارل ولتسينجر» و «كارل واتسينجر» عالما الآثار الألمانيان، اللذان كانا قد كُلِّفا بإعداد خريطة لمدينة دمشق سنة ١٩١٧، ودوّنا ملاحظاتهما عن المباني الأثرية التاريخية فيها، وثبّتا موقع كل منها على خريطة المدينة التي ألحقاها بكتابهما الذي نشر في ألمانيا سنة ١٩٢٤ عن آثار دمشق، وخصّا الجزء الأول منه بآثار دمشق في العهود البيزنطية والرومانية، والجزء الثاني بآثارها في العهود العربية الإسلامية، إلى أن «جامع بين البحرتين» يقع في المربع F4 من الخريطة، وتحت الرقم (14) فيه[٧٤]. وقد علّق الأستاذ «عبد القادر الريحاوي» الأثري السوري المعاصر على ذلك الجامع بقوله: «مسجد صغير قليل الأهمية»[٧٥]، ويتابع العالمان الأثريان الألمانيان حديثهما عن هذا المسجد بقولهما: «ويقصد بالبحرتين مجرى نهر بانياس[٧٦] الذي يقود الماء من «خان الحرير» [٧٧] إلى بيت «عبد الله باشا» [٧٨]. أما المجرى الثاني فهو أحد فروع

(٧٣) محمد أسعد طلس: ثمار المقاصد – مكتبة لبنان ١٩٧٥/ ٢٠٠.

(٧٤) قام الأستاذ «قاسم طوير» بترجمة الجزء الثاني «الآثار الإسلامية في مدينة دمشق»، وعلّق عليه الأستاذ «عبد القادر الريحاوي»، سنة ١٩٨٤م.

(انظر الخريطة في نهاية الكتاب المعرَّب، وموقع مسجد بين البحرتين» في المربع المشار إليه (F4).

(٧٥) انظر الصفحة (١٤٣) من الكتاب، والحاشية (٤) فيها.

(٧٦) هو أحد فروع «نهر بردى»، الذي ينبع من سهل الزبداني ويسقي دمشق وغوطتها، ويتفرع إلى سبعة فروع منها «نهر بانياس».

(٧٧) انظر: عبد القادر الريحاوي: خانات دمشق. في مجلة الحوليات الأثرية. المجلد (٢٥) سنة ١٩٧٥.

(٧٨) هو «عبد الله باشا العظم» والي الشام (١٢٠٥ ١٢١٣هـ/ ١٧٩٠– ١٧٩٨) في المرة

شبكة مياه «الشارع المستقيم» [٧٩]. ويربط هذا المجرى بين الحمّامات المشار إليها بالمربعين (F4 .21) و (E.5. 6) في مخطط دمشق[٨٠].

ولقد قمتُ باستقصاء وضع هذا المسجد لدى «مديرية الآثار» في دمشق، و «مديرية أوقاف دمشق»، فاتضح لي من السجلات، أن «مديرية الآثار» لم تدرجه ضمن «الأبنية الأثرية» بدمشق، لأنها رأت أنه مسجد بني حديثًا، وليس فيه من معلم أثري. أما «مديرية أوقاف دمشق»، فقد تبيَّن لديها أنه مسجل ضمن «المخطط الكادسترائي» وفي المحضر (٧١٣ شاغور جواني — البزورية)، وله وقف خيري باسم «وقف الفارسية»، وقد ثُبِّت هذا في شهر آب ١٩٣١ وتحت الرقم (١٤٧)؛ وله إضبارة في قسم الذاتية في «مديرية أوقاف دمشق» تحمل اسمه «إضبارة مسجد الفارسية».

=

الأولى؛ وفي المرة الثانية ثلاث سنوات (١٢١٤– ١٢١٧هـ/ ١٧٩٩– ١٨٠٣)؛ وفي المرة الثالثة ثلاث سنوات أخرى (١٢١٩– ١٢٢٢هـ/ ١٨٠٤– ١٨٠٨م) وهو باني المدرسة المسماة باسمه قرب «المدرسة الفارسية».

– الحصني / ٧٦٢ و ٩٦٧ — القاري: الوزراء الذين حكموا دمشق في كتاب صلاح الدين المنجد: «ولاة دمشق في العهد العثماني»، دمشق ١٩٤٩/ ٩٠ .

أما بيت «عبد الله باشا»، فبحسب تعليق «الريحاوي» في كتاب «الآثار الإسلامية في مدينة دمشق» المشار إليه، وفي هامش (١) في الصفحة (١٤٤) من الكتاب، فإنه يؤكد أنه قصر أسعد باشا العظم نفسه، وكان قد بناه هذا الأخير عندما كان واليًا على دمشق، وذلك سنة ١١٦٣هـ/ ١٧٥٠م، قرب الجامع الأموي، وهو أجمل مابُني في العصر العثماني ولا يزال قائمًا إلى اليوم.

انظر حوله: صلاح الدين المنجد، قصر أسعد باشا العظم بدمشق — بيروت ١٩٤٧.

(٧٩) الشارع المستقيم، هو اليوم «شارع مدحت باشا» بدمشق.

(٨٠) انظر «مخطط دمشق» المشار إليه في نهاية الكتاب.

وقد أتى في القسم (٢) من ذلك المحضر، بأنه يضم مسجدًا بمئذنة، وبناؤه من حجر وخشب ولَبِن، لأداء الفرائض الخمس. وفي القسمين (١) و (٦)، ذكر بأن هناك دكَّانين بناؤهما من حجر، عقد لهما بابان على الطريق، وهما وقف له، وله حق الارتفاق بالماء من «نهر قنوات» [٨١]. ويبدو أن ملاكه قد عُدِّل فجعل مسجدًا تُصلى فيه شعائر أربع فقط. وله إمام، ومؤذن، وخادم، وكان قد صُنِّف سنة ١٩٥١ على أنه جامع.

وهذا المسجد الصغير قد عُمل على ترميمه أخيرًا، لا ليعود مدرسة كما كان، وإنما ليصبح مصلّى صالحًا. وقد تم الترميم سنة ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، وقام بتمويل الترميم جهات ثلاث: «مديرية أوقاف دمشق»، و «لجنة حماية دمشق القديمة»، و «أهالي الحي» الذي يقع فيه هذا المسجد، وهم بصفة خاصة من تجار «سوق البزورية» [٨٢]. وقد أُنفق عليه مايقرب من ربع مليون ليرة سورية، ليُصبح على ما هو عليه الآن. وكثيرون في المنطقة اليوم يُحرّفون الاسم فيسمونه «مسجد الفاسي».

ولا يُعرف بالضبط الزمن الدقيق الذي اتخذ فيه هذا المسجد حجمه الصغير الحالي بعد أن أصابه ما أصابه. وهو يقوم اليوم في «سوق البزورية»، ليس بعيدًا عن «قصر العظم». ولا يعدو كونه قاعة للصلاة فقط، وله واجهتان: إحداهما المقابلة لـ «باب الزيادة»، الباب الجنوبي لجامع بني أمية، ويتوسطها باب خشبي

(٨١) نهر قنوات: هو أحد الفروع السبعة لنهر بردى في دمشق. وكان يسمى نهر «قنية»، أو «شكور» وكانت مياهه تتوزع على حمامات دمشق، ومساجدها ودورها.

(٨٢) هو السوق الواقع جنوب الجامع الأموي وقبل باب الزيادة. كان يبيع التجار فيه عادة أنواع البذور والقمح. ويباع فيه الآن جميع أنواع النقل من جوز، ولوز، وصنوبر، كما تباع أنواع السكاكر المصنَّعة، والروائح العطرية.

بمصراعين (صِفْقَيْن)، حديث الصنع، وبعرض متر تقريبًا؛ ويعلوه قوس حجري من حجارة سوداء وبيضاء. وعلى جانبي الباب نافذتان، تبعد كل واحدة عنه مترًا تقريبًا، وعرضها متر، وترتفع عن قاعدة البناء ما يقارب نصف متر، ويعلوها قوس من الحجر الأبيض والأسود. وقد حدِّدت النافذتان بقضبان حديدية طولية وعرضية مزخرفة على شكل مربعات. وإلى طرفي النافذتين، دكانان في جدار الواجهة بعمق متر وربع تقريبًا، وبعد كل واحد عن النافذة مقدار نصف متر. وهما لا يبرزان عن الواجهة، وفوق قوس كل دكان، وتبعد عنه بمقدار متر ونصف تقريبًا، نافذتان صغيرتان تستندان إلى قوسين صغيرين، وقد حددتا أيضًا. وبين هاتين النافذتين الصغيرتين، وعلى مستواهما، ثلاث فتحات بيضية الشكل، أكبرها القائمة فوق الباب، وإلى جانب النافذة اليسرى الصغرى. وفي نهاية الواجهة، تنتصب مئذنة صغيرة، خشبية، ورباعية الأضلاع، ولطيفة الشكل، وهي أشبه بمشربية نافذة منها بمئذنة، ويعلوها مخروط خشبي.

أما الواجهة الثانية، فتطل على زقاق ضيق، ويواجهها عبر الطريق بيت قديم، يستخدم مطبعة. ولهذه الواجهة نافذتان عاديتان ترتفعان عن الطريق مترًا ونصف، وكل واحدة بطول مترين تقريبًا، ولا تعلوهما أية أقواس على غرار نافذتي الواجهة الأولى، والواجهة مكلَّسة تكليسًا عاديًا.

والقاعة من الداخل، التي تستخدم مصلّى، ينتصب في وسطها قوس كبير مرتفع، وكأنه مدخل «إيوان»، وسقفها مركب من أعمدة خشبية صُفَّ بعضها إلى جانب بعض، على غرار السقوف الدمشقية الخشبية القديمة. وفي صدر المصلَّى محراب مجوّف في الجدار، الذي هو في الوقت نفسه جدار حانوت مجاور في سوق البزورية. ولا أثر للعمودين الرخامين الصليبيين اللذين أشار إليهما «السيد محمد أسعد طلس» في وصفه للمسجد، والمحراب ينحرف عن منتصف القاعة إلى اليمين قليلاً.

وعلى يسار الداخل، يقوم قبران صغيران متلاصقان وواطئان، ويبدو أنهما مجددان، وقد بُنيا من حجر رمادي اللون غامق، وفيه نثرات بيضاء، ولصيق بهما درج ضيّق جدًّا يصعد به إلى المئذنة، وقد دهنت الجدران بالكلس الأبيض.

أما الواجهة الرابعة من الداخل، فهي جدار لا نوافذ فيه، وتستند إلى جُدر دكاكين في سوق البزورية.

وإلى يمين الداخل إلى قاعة المصلّى، وضع برّاد ماء للشرب، وفي يمين الواجهة الثانية ميضأة حديثة على شكل مستطيل، تعلوه خمسة صنابير ماء، وفوقه سخّانان يعملان بالغاز لتسخين الماء في الشتاء. ويمكن وصف قاعة الصلاة هذه بكلمة موجزة: بأنها مصلّى حديث يفي بحاجة العاملين في السوق فقط.

وقد يبدو هنا أن ملفَّ «مسجد المدرسة الفارسية» قد أغلق، ولكنه في الحقيقة لم يقفل، إذ إن المسجد قد أخضع في العشر الأخير من القرن السابق، وفي مطلع هذا القرن، لترميم وإصلاح جديدين، أسهم فيهما عدد من كبار التجار المحسنين في المنطقة، وبعض النساء الخيّرات، فأحيطت جدرانه في قسمها الأسفل بنطاق خشبي حفظاً لها من الرطوبة والتآكل، وأنشئ في قسمه العلوي سدّة للمصلين مع درج يوصل إليها. وغطي القبران معاً بخشب ورخام، وأصلح المحراب وجُمِّل، ووضعت لوحة دوّن عليها بخط جميل واضح شيء من تاريخ «المدرسة الفارسية» والمسجد، وأن المدرسة قد هدمت أثناء العدوان الفرنسي على دمشق سنة ١٩٤٠، مع ذكر اسم بانيها الأول، وبعض من تاريخها، كما ذكرت أسماء الخيرّين والخيرّات الذين شاركوا في هذا الترميم الأخير، كما أصلحت المئذنة أيضاً.

وهنا يمكن القول إن مِلَفَّ «المدرسة الفارسية» قد أقفل. ولكنه في الحقيقة، في كل ذلك الحديث الطويل عن أوقاف المدارس الدمشقية القديمة، وضياعها، وعن الأمور المستجدة في حياتها منذ القرن الثالث عشر الهجري حتى الآن لم

يُشَر إلى تاريخ هذه «المدرسة الفارسية». إذ إن الحديث قد انجرّ إلى نهايته قبل أن يُحاط ببدايته.

للبحث صلة